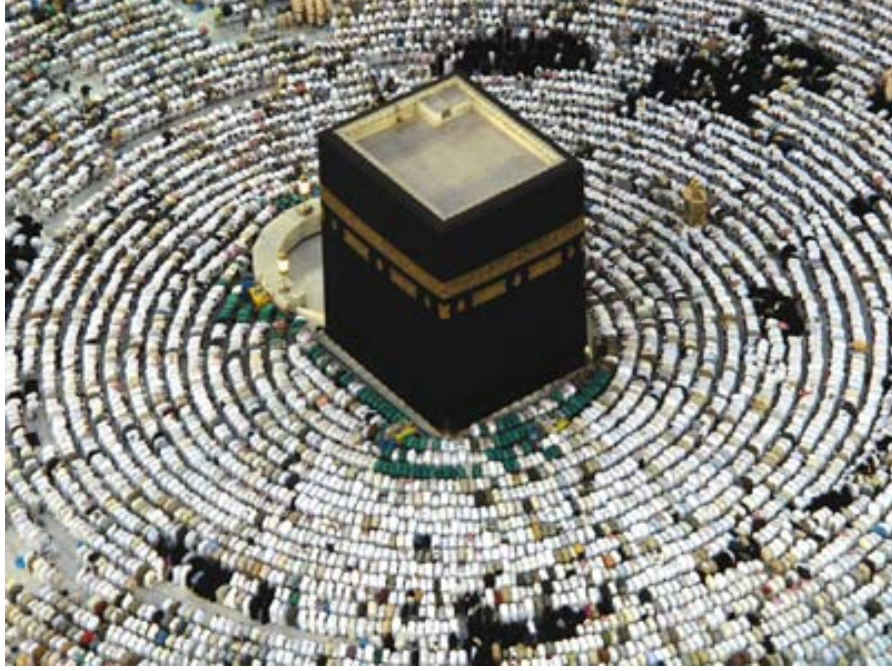


الخليل إبراهيم وهاجر وإسماعيل.. دروس في الطاعة



ما أن يأتي شهر ذي الحجة وتقترب أيام الحج إلا ونستحضر في أذهاننا قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام، تلك القصة التي غرست في داخلنا ونحن صغار نخطو خطواتنا الأولى في هذه الدنيا، وكبرنا وكبرت معنا، وفي كل مرحلة من مراحل حياتنا نقرأها ونفهمها بشكل جديد.

واليوم استوقفني مفهوم الطاعة الذي ملأ أركان تلك القصة سواء □ أو للأب أو للزوج، فها هو سيدنا إبراهيم يمثل لأمر ربه ويطيعه؛ فيأخذ ابنه وأُم ابنه ويهاجر بهما إلى مكان لا يوجد به أحد ولا ماء ولا طعام ويتركهما، فلما توارى عنهما ورائثية، دعا ربه سبحانه، وأظهر حزنه، وأظهر الشفقة التي كان يخفيها عن هاجر وعن ابنها، قال تعالى عنه: (رَبِّ بَنَدَا إِنْ رَبِّي أَسْكَنَتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَسْكُرُونَ) (إبراهيم/ 37).

وها هي هاجر تسير خلف إبراهيم، وهي تقول: إلى من تتركني في هذا المكان الذي لا إنس فيه ولا ماء ولا

طعام؟! ويتركها إبراهيم وينصف حتى لا يظهر التأثير أمامها، ثمّ تسأله مرّات، فإذا بها تقول: آيّ أمرك بذلك؟ قال: نعم، قالت: إذاً، فلا يضيعنا. فكان عندها الثقة بالّ عزّ وجلّ، وأنّ الّ طالما أمر إبراهيم بذلك فإنّ الّ لن يضيعها هي وابنها، فتلك المرأة بمجرّد علمها بالأمر الرباني أطاعته وأطاعت إبراهيم.

وإسماعيل الذي يظهر أعلى درجات الطاعة عندما قال لأبيه: (... يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللّٰهُ مِنَ الصّٰبِرِينَ) (الصافات/ 102)، بعد أن أخبره أبوه إبراهيم عن الرؤية التي رآها، وها هو إبراهيم يطيع أمر ربه مرّة أخرى ويرفع القواعد من البيت العتيق امتثالاً لأمره (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطّٰلِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللّٰهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوُّوْا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) (الحج/ 26-29).

وفي قصة إبراهيم مع زوج إسماعيل صنف آخر من الطاعة قدمها إسماعيل، إذ استأذن إبراهيم سارة أن يذهب لزيارة هاجر وإسماعيل (ع) فأذنت له، وشرطت عليه ألا ينزل، فوافق وتوجه نحو مكة، وقصد المكان الذي تركهما فيه، فوجد هاجر قد ماتت، ولم يجد إسماعيل (ع)، فسأل امرأته عنه وعن أحوالهما، فأخبرته أن زوجها خرج للرزق، وشكت له سوء الحال، فأخبرها أن تقرئ زوجها السلام وأن يغير عتبة بابه، ففهم الابن أن والده قد زاره وبأمره أن يطلق زوجته ففعل، وفي الزيارة الثانية لسيدنا إبراهيم (ع) قابلته الزوجة الثانية بترحاب وأدب، ولم تشك سوء الحال وأثنت على الّ سبحانه وتعالى، وأحسنّت إلى الأب، فأخبرها أن تقرئ زوجها السلام، وتخبره أن عتبة بابه قد استقامت، ففهم الابن رسالة الوالد، وأنّه طمأنه على حاله وعلى أهله.

أهمية الطاعة: منحنا الّ حرّية الاختيار بين طاعته وعدمها، ووعد من اتّبع طريقه وأطاعه الثواب الكثير وجنة عرضها السماوات والأرض، وطاعة الّ تُكسبنا حبه، عن أبي هريرة (رض) قال رسول الّ (ص): "إنّ الّ تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألتني ل أعطينه، ولئن

كما أنّ الطاعة نتيجة لترتيب الأولويات، فمن كان رضا الله همهم وكان رضاه وطاعته من أولوياته فتصبح الأمور أمامه واضحة، ولا يسمح للشك للتواجد في عالمه، ولا يتأثر بالمغريات من حوله، فهو يعرف ما يريد أن يحققه، ويجب أن نركز هنا على نقطة مهمة، وهي أنّ الطاعة يجب ألا تكون تحت رحمة هوى النفس، بل قائمة على العبادة وتكون في اليسر والعسر.

نحتاج أنواعاً أخرى من الطاعة في حياتنا، وخاصة عندما نقوم بعمل جماعي، فتصبح الطاعة - فيما لا يغضب الله - سبباً في نظام العمل والوصول إلى الغاية المنشودة، فالأناية والتفرد بالرأي يؤديان إلى الفوضى، فاحترام المرؤوس لرئيسه سبب في نجاح العمل، وهنا أيضاً يجب أن نوضح أنّ الطاعة في الإسلام وليدة الطاعة لله عز وجلّ ولرسوله (ص)، ولهذا كان الرئيس في الإسلام لا يطاع لذاته ولكن في حدود الشرع.

الطاعة تحتاج إلى مجاهدة النفس، والإخلاص، وبذل الجهد، وضبط النفس، والتخلي عن هوى النفس، وعدم الإستعلاء على الآخرين، ولهذا ستأخذ منّا بعض الجهد والوقت حتى نمارسها ونعلّمها لصغارنا، ولنا مع الصغار وقفة خاصة.

- كيف نعلّم أبناءنا الطاعة؟

وهنا نقصد بالطفل المطيع، ذلك الطفل الذي يحترم كلام الشخص المسؤول عنه، ويميّز الأوامر التي تصدر له ويقيمها، ومن ثمّ يطبق باحترام ما يُطلب منه، وهذا التدريب على الطاعة يحتاج إلى التدرج في التعليم والانتقال من خطوة إلى أخرى، ولكن النتيجة تستحق التعب والوقت، وهي تتضمن النقاط التالية:

1- إعطاء أوامر واضحة المعالم: فالكثير من الأوامر التي تصدرها لصغارنا تكون غير واضحة أو غير مفهومة، وعندما يفشل الصغير في تنفيذها نعنّفه أو نعاقبه، ولكن الأوامر الواضحة والبسيطة والملائمة لعمره تمكن الطفل من اتباعها وعدم إهمالها، كأن تطلب من ابنك الذهاب للنوم بعد العشاء، فهذا الأمر يعتبر غير واضح، فأنت لم تحدد الوقت وقد يمتد العشاء عنده لوقت متأخر.

2- إعطاء عدد من الخيارات: وهنا علينا أن نراعي احتياجات الطفل إلى جانب أوامرنّا أو طلباتنا فنوفّق بين الاثنين، فإذا طلبنا منه الدراسة علينا أن نراعي باقي الأنشطة التي يحب أن يمارسها.

3- مراعاة عُمر الطفل: فالطفل ذو الثلاث سنوات يكون تقبله لتنفيذ الأوامر أقل من الطفل ذي السنوات العشر، ومراعاة عمر الطفل أمر ضروري لمعرفة ماذا نتوقع من الطفل وما نتقبل منه.

4- تقديم الإحترام والتقدير اللازم للطفل: لأنّه سوف يتصرف بنفس الطريقة التي سوف تعامله بها، فإنّنا إن لم نقم باحترامه فلن يحترمنا ولن يحترم عالمنا.

5- مراقبة أوامرك وتعليماتك لصغارك وتقيّدُها من ناحية الأنانية: فالطفل يستطيع أن يميّز بين الطلبات التي تخص مصلحته والطلبات التي تحقق رغبات الوالدين بأنانية، كأن تطلب منه الذهاب للنوم رغبة في الشعور بالراحة والهدوء منه، أو أن يكون طلبك لصالحه رغبة منك في أن يحظى بساعات نوم كافية لمزيد من النشاط.

6- مراقبة نبرات صوتك: فالغضب والصوت العالي قد ينتقل لطفلك، وقد يجعله متحفزاً لكل ما تقوله ورافضاً له، ولذلك حاول أن تتحكّم في نبرة صوتك وتحدّث بهدوء قدر الاستطاعة.

7- محاربة شعور العناد والرغبة في الإنتقام بداخلك: فتلك المشاعر إن تمكّنت منك أمام رفض ابنك تنفيذ أوامرك وعدم طاعته لك، ستحولك إلى دكتاتور في نظره.

8- مكافأة الصغار عندما ينفذون أوامرك وطلباتك: فالمكافأة كثيراً ما تفيد أكثر من العقاب والتصرف بسلبية.

9- تقبل طلبات الصغار: وعدم الرفض دائماً، فهذا يعلمهم أنهم كما ينفذون ما يُطلب منهم هناك من ينفذ ما يطلبونه.

10- أمّا طريقة تعليم الصغار تقييم الطلب من حيث موافقته للشرع: فهذا يحتاج إلى تعليمهم ثقافة دينية تتناسب مع أعمارهم، وأن نكون مثلاً حياً لهم يتعلمون منه.